حـــــــــــوارات

الدكتور قاسم حسين صالح : النظام السابق احدث تخلخلا كبيرا في تركيبة المجتمع العراقي

مـــــازن لـــطـيف

❖هل كان لتراكم الاحداث التي مرت خلال العقود الماضية أثرها في الشخصية العراقية ؟

- يمكن القول بوجود شخصيتين متمايزتين حاليا في المجتمع العراقي هما :شخصية المولودين قبل الحروب (جيل الكبار) وشخصية المولودين قبيل وخلال الحروب . وليكن عام ١٩٧٥ حدا فاصلا بين الجيلين ليكون عندنا (جيل الشباب) بعمر ٣٣ سنة فما دون ، و(جيل الكبار) الذين تزيد اعمارهم على ٣٥ سنة.

اننا ، نحن المعنيين بالعلوم الاجتماعية والنفسية ، نرى أنه توجد في داخل كل إنسان (منظومة قيم) هي التي تحرّك سلوك الفرد وتوجهه نحو أهداف محددة بطريقة تشبه ما يفعله " الداينمو " بالسيارة . فكما أنك ترى السيارة تتحرك (وحركتها سلوك) ولا ترى الذي حركها " الداينمو " كذلك فأنت لا ترى " المنظومة القيمية " التي تحرّك سلوك الفرد . وهذا يعني أن اختلاف الناس : (رجل الدين عن رجل السياسة عن رجل الاقتصاد عن الفنان عن المنحرف عن الإرهابي ...) يعود إلى أن المنظومة القيمية تكون مختلفة لديهم نوعيا وكميا وتراتبيا وتفاعليا .

فالمثقف –في سبيل المثال –تكون منظومته القيمية حضارية النوع غزيرة الكم متراتبة منطقيا وهارمونيا ومتفاعلة بانفتاح مرن ، فيما تكون المنظومة القيمية لدى المتعصب " لقومية ، مذهب ، معتقد .." تقليدية ومحدودة ومرصوفة ومتلاصقة وصلدة. إن أكثر من ٦٠٪ من أفراد المجتمع العراقي ولدوا في حرب ونشأوا في حرب ويعيشون الآن أكثر من حرب . هذا يعني أن جيل الشباب(وليس بالمطلق) يمتلك منظومات قيمية تختلف عن المنظومات القيمية لجيل الكبار . وأن الحروب (التي بطبيعتها تخلخل القيم وتفسدها خاصة إذا كانت طويلة ومتلاحقة وكارثية) والفقر والشعور بضياع العمر واليأس من المستقبل والخوف من المجهول، شكلت لديهم شبكة منظومات تتصدرها قيم الصراع من أجل البقاء والأنانية وتحليل ما يعد حراما أو غير مقبول في المعيار الأخلاقي للمجتمع العراقي .

ولا تنس ان النظام السابق احدث تخلخلا كبيرا في تركيبة المجتمع العراقي بأن أعاد توزيع الثروة وخلق تباينا حادا بين طبقتين : أقلية غنية مستحدثة وفقيرة كبيرة ابتلعت الطبقة الوسطى بكل مثقفيها وموظفيها بمن فيهم أساتذة الجامعة . ففي دراسة ميدانية أجريتها عام ١٩٩٧ تبين منها أن مكانة الأستاذ الجامعي التي تحتل المرتبة الرابعة في قمة الهرم الاقتصادي للمجتمع العراقي (مع الطبيب والتاجر والمهندس) تراجعت إلى المرتبة الرابعة والعشرين بعد مصلّح الراديو والتلفزيون! وجاء المعلّم بعد الحمال في رتبته بالهرم الاقتصادي ! ومعروف أن التخلخل في الهرم الاقتصادي للمجتمع يفضي إلى تخلخل في منظوماته القيمية .

ويحدث ألان ما يباعد أكثر في التباين الاقتصادي ، فمعظم التجار ورجال الأعمال اضطروا إلى أن يهاجروا أو يوقفوا أعمالهم بعد انهيار الصناعة العراقية ، وهجر البلد أكثر من أربعة ملايين ، وهجر في داخله قرابة المليون.ومع أن رواتب الموظفين تحسنت بعد التغيير وانعكست إيجابيا" على وضعهم الاقتصادي ولكن ما حدث في السنتين الأخيرتين أنهم " أكلوا " الإيجابي ولم يعدهم إلى طبقتهم الوسطى " .

يمكن القول بوجود شخصيتين متمايزتين حاليا في المجتمع العراقي هما :شخصية المولودين قبل الحروب (جيل الكبار) وشخصية المولودين قبيل وخلال الحروب . وليكن عام ١٩٧٥ حدا فاصلا بين الجيلين ليكون عندنا (جيل الشباب) بعمر ٣٣ سنة فما دون ، و(جيل الكبار) الذين تزيد اعمارهم على ٣٥ سنة..هذا ما يؤكده الدكتور قاسم حسين صالح عالم النفس العراقي وصاحب المؤلفات العديدة منها على سبيل المثال الإنسان.. من هو ؟ الشخصية بين التنظير والقياس . نظريات معاصرة في علم النفس الاضطرابات النفسية والسلوكية : علم النفس المعرفي: الإبداع في الفن. سيكولوجية إدراك اللون والشكل الإبداع وتذوق الجمال التلفزيون والأطفال يسيكولوجية الحب بانوراما نفسية. سيكولوجيا عراقية. في سيكولوجية الفن التشكيلي المعاصر الطاقات المكبوتة : دراسة في سيكولوجية المرأة العربية . جريدة المدى حاورت الدكتور قاسم حسين صالح :

مقابل هذا ظهرت فئة قليلة مستحدثة أيضا تتجه نحو الثراء بشهية مفتوحة ممثلة بالحكومة وأعضاء البرلمان الذين وعدوا الفقراء بالرفاهية فزادوهم فقرا" (هناك مثل صيني يقول : ضع يدك في فم أخطبوط ولا تضعها في فم جائع اغتنى). فراتب رئيس البرلمان مثلا" أكثر من ستين مليون دينار بالشهر فيما المهجرون لا يجدون قوت يومهم وقسم منهم ينامون مع أطفالهم في الحدائق العامة في حر تموز وآب اللهاب، ولا يجدون الكهرباء ولا النفط يتدفأون به في كانون . وصار عدد الأرامل والأيتام والجياع والثكالى والمهاجرين أكثر بأضعاف مما كانوا عليه في حروب صدام وحصاره . ومع ذلك تجد السياسيين من المعممين والافندية يتباهون بان الخلاص من الدكتاتورية لا يساويه ثمن حتى لو دمرت بغداد وصار الوطن كله يتحنى بدماء أبنائه كل يوم ولأجل غير مسمى. وإذا صار بين من يفترض فيهم أنهم القدوة والنخبة " بعمامة أو بدونها " منافقين.. اعني يمتدحون الواقع المعيش مع أن كل ما فيه كارثة ، فأن النفاق بأصوله ومشتقاته سيكون قيمة مشاعة التداول بين الناس ، بل أنه صار أمرا" عاديا" كما السرقة والاختلاس!.

وما أخشاه على المجتمع العراقي أن الوضع العام بالعراق طارد للذين يمتلكون منظومات قيمية صحية ، بخاصة العلماء والمفكرين والمتدينين المتنورين والمثقفين والفنانين . وهذا يعني أن صراع القيم بالمجتمع العراقي سيكون بين المنظومات القيمية التي تؤكد على حاجات البقاء والاحتماء والمصالح البراجماتية والقيم الأنانية (الغالبة في المنظومات القيمية لدى الشباب) على حساب القيم الأخلاقية والإنسانية الرفيعة التي تلقت ضربات موجعة من النظام السابق والاحتلال والحكومات الثلاث .

❖انك تخطئ الأستاذ الدكتور علي الوردي في وصف الشخصية العراقية ب " الازدواجية" فما هي مبرراتك ؟.

- يعد العلاّمة الجليل استاذنا الكبير علي حسين الوردي هو الذي الصق صفة (ازدواج الشخصية) بالفرد العراقي في محاضرته التي القاها في خمسينيات القرن الماضي ، وقد استلطفها الناس فشاعت بينهم . ولكي نصل الى نوع الخطأ الذي وقع فيه علاّمتنا الوردي علينا أن نوضح المفهوم العلمي لمصطلح (ازدواج الشخصية).

في خمسينيات القرن الماضي شاع في الولايات المتحدة مفهوم (ازدواج الشخصية) وكان المثال الكلاسيكي لها هو رواية ستيفنسن الموسومة :" دكتور جيكل ومستر هايد Dr.Jekyll and Mr. Hyde" التي جرى تحويلها الى فلم سينمائي جذب الملايين من المشاهدين.

وحدث أن ظهرت- في الخمسينيات ايضا - حالة واقعية في أمريكا لفتاة أسمها "Sybil"كانت لها ثلاث شخصيات : شخصية عادية ، موظفة تمارس عملها حسب الأصول ، وشخصية متدينة تذهب الى الكنيسة في أيام الآحاد ، وشخصية مستهترة ترتاد نوادي الرقص والقمار في الليل . وكان لكل شخصية أسم خاص بها ولا تعرف احداهن الأخرى . ولأن الحالة مثيرة كسابقتها فقد التقطتها السينما وحولتها الى فلم بعنوان " ثلاثة وجوه لحواء ، "Three Faces of Eve عرض عام ١٩٥٧وقامت ببطولته الممثلة

قاسم حسين صالح

Joanne Woodward فظهر مفهوم جديد بعد " ازدواج الشخصية " هو " تعدد الشخصية Multiple Personality "وحدث ان أشاعت السينما والصحافة الفنية بين الملايين الذين أدهشهم الفلم أن البطلة مصابة بمرض " الشيزوفرينيا " وكان هذا خطأ علميا ومفاهيميا شاع بين الناس وبين أوساط علمية ايضا ، وروجت له السينما والتلفزيون وبخاصة أفلام " هتشكوك " ، الأمر الذي اضطر عددا من الأطباء النفسيين الى التنويه ، في السبعينيات ، بأن ما يسمى بـ"ازدواج الشخصية أو تعددها " ينضوي تحت العصاب وليس الذهان ، لأن المصاب بهذا الاضطراب يتقمص أدوارا مختلفة ولو أنها متناقضة ، ولكنه يقوم بكل منها بطريقة منطقية ومتماسكة ومتلائمة مع المتطلبات الاجتماعية للدور ، بعكس ما يحدث في الشيزوفرينيا اذ يعبر الاضطراب عن انفصال الشخصية عن متطلبات الواقع فيتصرف الشخص بطريقة تبدو للآخرين مضطربة ولا تتلاءم مع المعايير الخارجية .

ولقد جرى حديثا (أدبيات عام ألفين وما بعده) اسقاط مصطلحي " ازدواج الشخصية وتعدد الشخصية " واستبدالهما بمصطلح " اضطراب الهوية الانشطاري Dissociative Identity Disorder " وحدد عرضه الرئيسي بأن الفرد " يعيش بشخصيتين أو أكثر ، وأن هذه الشخصيات قد تكون على دراية ببعضها البعض او قد تكون في حالة فقدان الذاكرة النفسي " ❖❖.

هذا يعني أن مفهوم " ازدواج الشخصية " - وهو مفهوم نفسي وليس اجتماعيا- لم يعد متداولا في الطب النفسي وأنه استبدل بمفهوم " اضطراب الهوية الانشطاري " يملك المصاب به هويتين أو شخصيتين-وقد يصل العدد الى العشرات !- لكل واحدة أسلوبها الخاص بها في السلوك والادراك والتفكير والتاريخ الشخصي والعلاقة بالآخرين.

وللايضاح فان ما يحدث في هذا الاضطراب " الفانتازي " ، الذي لايزال يثير الجدل، أن الشخصية الأصلية أو المضيفة يحل أو ينزل عندها ضيوف هي الشخصيات البديلة . فاذا كانت هنالك شخصيتان في الفرد (الأصلية والضيفة) فانهما تتناوبان السيطرة ، والمثال الكلاسيكي هو " دكتور جيكل ومستر هايد " حيث يمارس الدكتور جيكل في النهار عمله الاعتيادي كطبيب فيما يتحول في الليل الى مجرم سفّاح باسم هايد .

والخطأ العلمي الذي وقع فيه الوردي أنه قام بتحويل أو ترحيل مفهوم يتعلق بمرض نفسي يصيب أشخاصا معدودين الى مفهوم اجتماعي يصيب الملايين من الناس .

وليته استخدم المفهوم مجازا او استعارة انما استخدمه بنفس المعنى الشائع لمرض ازدواج الشخصية في الخمسينيات . فهو يقول بالنص :" ان العراقي هو في الواقع ذو شخصيتين ، وهو اذ يعمل باحدى شخصيتيه ينسى ما فعل آنفا بالشخصية الأخرى.. وانه اذا بدر منه بعدئذ عكس ذلك فمرده الى ظهور نفوس أخرى فيه (لاحظ هنا تعدد وليس ازدواجا) لا تدري ماذا قالت النفس الأولى وماذا فعلت). وواضح لجنابك أن الوصف هذا ينطبق على حالة مرضية وليس على حالة سوية ، بمعنى أن المصاب به يعاني اضطراب او مرض (ازدواج الشخصية) بمفهومه الشائع في الخمسينيات ، و" اضطراب الهوية الانشطاري " بالمفهوم الحديث.. وليس من المعقول بطبيعة الحال أن يكون ملايين العراقيين مصابين بهذا الاضطراب العصابي(عصابيين!) ، او المرض الذهاني على رأي آخر(مجانين !).

ان الذي قصده الوردي هو على وجه التحديد :(التناقض بين الأفكار والسلوك) ، بمعنى أن السلوك الذي يتصرف به الفرد يتناقض او يتعارض مع الفكرة أو الاتجاه او القيمة التي يحملها.

وأليك بعض الأمثلة مما يذكر:

" ان العراقي ، سامحه الله ، أكثر من غيره هياما بالمثل العليا ودعوة اليها في خطاباته وكتاباته ، ولكنه في نفس الوقت من أكثر الناس انحرافا عن هذه المثل في واقع حياته ".

" حدث مرة أن أقيمت حفلة كبرى في بغداد للدعوة الى مقاطعة البضاعة الأجنبية ، وقد خطب فيها الخطباء خطبا رنانة وأنشد الشعراء قصائد عامرة . وقد لوحظ آنذاك أن اغلب الخطباء والشعراء كانوا يلبسون أقمشة أجنبية والعياذ بالله ".

" ومن العجيب حقا أن نرى بين مثقفينا ورجال دين فينا من يكون ازدواج الشخصية فيه واضحا: فهو تارة يحدثك عن المثل العليا وينتقد من يخالفها ، وتارة يعتدي او يهدد بالاعتداء لأي سبب يحفزه الى الغضب تافه او جليل ، ضاربا عرض الحائط بتلك المثل التي تحمس لها قبل ساعة ".

ان مثل هذه الحالات بعيدة جدا عن أن نصفها بـ" ازدواج الشخصية " انما هي تناقض بين الأفكار والسلوك ، أي أن الفرد يؤمن بقيمة أو يتبنى فكرة أو يدعو لها أو يصرح بها لكنه يتصرف بسلوك مناقض لها ، كأن يدعو الى أن تمارس المرأة العمل ضابطا في الشرطة او الجيش غير أنه يمنع ابنته من التقديم الى كلية الشرطة أو الكلية العسكرية .

وعليه فان الأصوب علميا وعمليا أن نصف ذلك بـ " تناشز الشخصية " الذي يعني التنافر أو التناقض أو عدم التطابق بين ما يعتقد به الفرد وبين ما يقوم به من سلوك. والخطأ الآخر الذي وقع فيه الوردي- وقد لا يكون مقصودا - أن محاضرته حول ازدواج الشخصية العراقية تجعل المتلقي لها يفهم أن العراقي يميل الى تغليب السلوك المناقض لأفكاره وقيمه حيثما اقتضت مصلحته ذلك ، أو أن ذلك من طبعه.. وهي صورة سلبية عن الشعب العراقي.

لتكن " المدى " أداتنا لكسر الحصار الثقافي

فـاضـل الـسـلـطـاني

كل يوم، بحدود الساعة الثانية والنصف بتوقيت لندن، تتسلل أصابعي تلقائياً إلى موقع " المدى". وأصبح ذلك بمرور الزمن عادة يومية أمارسها منذ انطلاقة الصحيفة قبل خمس سنوات، بعد أشهر قليلة فقط من إزاحة الكابوس. وكما يحصل مع كل عادة تتحكم بنا، أفعل ذلك حتى أيام الجمعة!. لا أريد أن أقول هنا إنني أفعل ذلك، لأن "المدى" هي النافذة التي تغنيني عن النوافذ الأخرى التي أطل منها على بلدي البعيد، بل لان هواي، ببساطة، يلتقي مع هواها، وملامح مشروعها، فكرياً وثقافياً، هي ملامح مشروع العراق الذي نريده، ونحلم به طوال حياتنا: مشروع التفتح والتنوير والثقافة الإنسانية المتعددة، وكل ما يليق بالعراق الذي ضل دربه طويلا.

ولذلك، فـ" المدى" مطالبة، بحكم ثقل المشروع الذي تبنته في أحلك الظروف التي مر بها العراق والثقافة العراقية، بزيادة جرعة نقد أمراضنا وأخطائنا، ماضياً وحاضراً، وطرح مزيد من الأسئلة حول ما فعلناه ونفعله، سياسة وثقافة، مهما كانت مرارة هذه الجرعة.

وأتمنى على "المدى" أيضاً أن تعجل من مشروع انتشارها عربياً في هذا الوقت بالذات. فالعراق كله لايزال محاصراً إعلامياً، وموضع سوء نية كبير. ولاتزال الثقافة العراقية مطرودة من البيت الثقافي العربي. ولا يبدو أن اولي الأمر، هؤلاء الذين أدخلوا العراق وثقافته بيت المحاصصة سيئ السمعة، تؤرقهم هذه القضية.

نتمنى على" المدى"،الجريدة، ذلك بعدما انتشرت بيوت "مؤسسة المدى" في أكثر من بلد عربي، وغزت منشوراتها الأسواق العربية، ودخل كتابها المجاني البيوت. لكن يبقى للصحيفة اليومية تأثيرها المباشر والفوري، وامتداداتها الجماهيرية التي قد لا يطولها الكتاب.

لا يبدو لي الان أن أية جهة أخرى قادرة على تحقيق شيء من ذلك غير "المدى"، ولا أجد سواها، للأسباب التي أشرت إليها سابقاً، مؤهلة لكسر الحصار الرهيب غير المعلن، المفروض على العراق، وطناً وثقافة، وإعادة تقديم صورتنا الحقيقية التي شوهت ملامحها سنوات الفاشية طويلا، وتحاول أن تحجبها الآن قيم متخلفة دخيلة على نسقنا الاجتماعي والثقافي، مستغلة الفراغ الكبير الذي تركه غيابنا لعوامل فرضت علينا، وأخرى متعلقة بنا.

آن الأوان لشن هجومنا الثقافي المضاد.

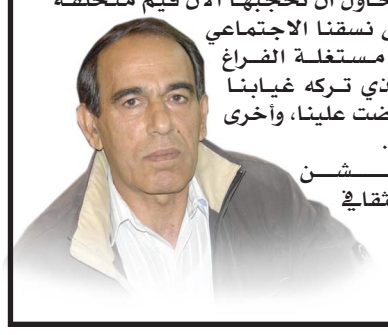

أتمنى على "المدى" أيضاً أن تعجل من مشروع انتشارها عربياً في هذا الوقت بالذات. فالعراق كله لايزال محاصراً إعلامياً، وموضع سوء نية كبير. ولاتزال الثقافة العراقية مطرودة من البيت الثقافي العربي. ولا يبدو أن اولي الأمر، هؤلاء الذين أدخلوا العراق وثقافته بيت المحاصصة سيئ السمعة، تؤرقهم هذه القضية.

تـــشـــارلـــز ديـكـنـز يـنـســى حـبـهُ الأول

طفولة مسحورة بقصص ألف ليلة وليلة...!

وحـيـدة المـقـدادي

لـنـدن

"يظل ديكنز جديرا بالأهتمام والدراسة حتى اليوم.. انه أول كاتب تقرأه الطبقة السفلى في المجتمع ويدفن مع العظماء في مقبرة ويستمنستر. لقد هاجم ديكنز في روايات (أوقات عصيبة) و(بليك هاوس) و(ليتل دوريت) و(اوليفر تويست) المؤسسات الأجتماعية بشدة، مع ذلك فأنه لم يتعرض لأي عداء أو إستهجان. والحقيقة أنه بأنتقاده المؤسسات التعليمية والحكومية والقانونية كان ينتقد الطبيعة البشرية أكثر من أية جهة أخرى".

وحول أتهام ديكنز بتبني الأفكار الأشتراكية لكونه عاش في ماعرف بالعصر الصناعي الجديد الذي مهد لظهور نظرية كارل ماركس، يقول أورويل: "يقال أن الناقد (ماكولي) رفض ان يكتب عرضا لرواية (أوقات عصيبة) لديكنز، لكونه، أي الناقد (ماكولي)، لايتفق مع الحس الأشتراكي في تلك الرواية.. لكن في الحقيقة ليس هناك سطر واحد فيها يمكن أن ينسب إلى الفكر الأشتراكي.. بل أنها رواية رأسمالية ولكنها تدعو الى رأس المال الشريف اكثر مما تدعو الى قيام ثورة عمالية. لقد أراد ديكنزالقول ان الناس اذا ماتصرفوا بنزاهة فان العالم سيكون نزيها"

تشارلز ديكنز

ألف ليلة وليلة .. الحب الأول!

ولد تشارلز ديكنز في السابع من شباط من عام ١٨١٢ لأسرة من الطبقة المتوسطة تعيش في بورتسموث بمقاطعة هامشير في جنوب انجلترا. وتمت الولادة في تمام الساعة الثانية عشرة ليلا من يوم جمعة. وقد كتب لاحقا عن حدث ولادته بقوله: "كان صراخي في لحظة الولادة ينطلق في ايقاع متناغم مع دقات الساعة وهي تعلن عن حلول منتصف الليل".

كان والده يعمل قي دائرة حكومية تابعة للبحرية وكان يتقاضى راتبا جيدا الا انه كثيرا ماكان يعجزعن تسديد اجوارالسكن فيتعرض للسجن. وكان الوضع المعيشي المتأرجح للأسرة من اسباب عمل ديكنز في احد مصانع الأحذية بلندن. فواجه مسؤوليات الحياة وهو في سن غضة وتعرض لظروف قاسية نقلته من عالم الطفولة السحري الذي كان يجد فيه كل مايتمناه الطفل من العاب وقصص الى عالم يعج بالمنبوذين والمشردين.

يقول الناقد غريهام سمث الذي كتب سيرة حياة ديكنز واصفا تأثير قصص ألف ليلة وليلة عليه قائلا:

" أن قصص ألف ليلة وليلة هي (الحب الأول) في حياة ديكنز. فقد ساعدت (حكايات الجنّي) بشكل خاص على تشكيل خياله، ومكنته من الوصول الى (ذروة شعرية) في الكتابة بدلا من الأكتفاء بالنقل العادي لمجريات الواقع. ان هذه الذروة الشعرية هي مايجسد قدرته الحقيقية ككاتب".

ويقول باحث أخر هو(تيم ريمر) حول تأثير قصص ألف ليلة على نشوء الرواية الأوروبية: "لايمكن تجاهل دورهذه القصص في تشكيل التجربة الأدبية لديكنز ولبقية الأدباء الذين عاصروه. بل لايمكن في الحقيقة تجاهل دورها في ظهورالروايات المبكرة العظيمة في أوروبا".

تم جمع وتدوين حكايات ألف ليلة وليلة في بغداد في العصر العباسي خلال الحقبة الواقعة مابين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادي، وترجمت لأول مرة في اوروبا من قبل أحد رجال الدولة الفرنسيين وهو (انطوان غالاند) الذى كان واسع الأطلاع على اللغات العربية والتركية والفارسية. قرأ غالاند رحلات السندباد في عام ١٦٩٠ وتمكن من ترجمتها بشيء من التصرف في عام ١٧٠١, أما ترجمتها الى اللغة الأنجليزية فقد صدرت في عام ١٨٨٥ من قبل ريتشارد بيرتون. وفي بداية القرن التاسع عشر سعى كتاب عديدون في انجلترا الى أعادة تقديم قصص ألف ليلة كل بأسلوبه الخاص، وصدرت نسخ عديدة محورة تروق لعموم الناس منها نسخة الكاتب الأنجليزي جيمس رايدلي. وقد أنتشرت تلك النسخ في معظم البيوت في العصر الفيكتوري، ووجد الصغيرديكنز نسخة منها في قبو منزله. وقد تأثر ديكنز بشدة بهذه الحكايات وألف على منوالها، وهو في الحادية عشرة من العمر، مسرحية بعنوان (مسنار: سلطان الهند) ولكن هذا الأبداع الأدبي المبكر ضاع ولم يعثر له على أثر.

عالم ديكنز السحري!

في الزقاق الرئيسي لمدينة (برودستيرز) يوجد العديد من المكتبات التي تزدحم بالكتب القديمة والنادرة. وتضم مكتبة (ألبيون بوك شوب) مجموعة قيمة من الكتب المتعلقة بديكنز، أحدثها كتاب صادر في السبعينيات بعنوان (عالم تشارلز ديكنز) وضعه الناقد الأنجليزي السير أنجوس ولسون (١٩١٣-١٩٩١). نقرأ في هذا الكتاب، الذي تتخلله رسوم تصور المجتمع الفيكتوري، عن حادثة طريفة

وقعت لديكنز حين كان طفلا شديد الولع بالدمى والأقنعة المصنوعة من الورق، إذ أستيقظ ذات ليلة من نومه مذعورا وهو يصرخ "إنه قادم الي ..." ويبدو أنه رأى في المنام احد تلك الأقنعة التي يلعب بها في النهار يتحرك صوبه! ويعلق الناقد ولسون حول تأثير هذه الحادثة بقوله: "إن المتعة الممزوجة بالهلع هي أهم مايميز روايات ديكنز ويجعلها جذابة للقارئ. إن ديكنز يمنح الحياة للأشياء الجامدة ويجعلها تتصرف كالمخلوقات البشرية، وربما هو يفعل ذلك لأنه كان في طفولته يتحدث الى الدمى والأقنعة ويتعامل معها كبشر". ويضيف الناقد ولسون: "لقد كتب ديكنز ذات مرة عن أهمية الخيال بالنسبة للأنسان، قائلا: في عصر تحكمه الصناعة، نحتاج الى خيال الطفولة لكي تنمو أحلامنا".

وفي موضع اخر من هذا الكتاب الشيق نجد وصفا صادقا لأهمية قصص ألف ليلة وليلة في تشكيل تجربة ديكنز الروائية. فيقول السير ولسون أن الدورالذي لعبته القصص يتضح على مستويين هما المستوى االخيالي والمستوى السردي. ويقر بأن موهبة ديكنز ككل أستندت الى دعائم عربية قوية. ويوضح قائلا: "أن (الليالي العربية) هو الكتاب الذي أعتمد عليه ديكنز ــ بعد شكسبير والكتاب المقدس ــ في رواياته ورسائله. كانت (الليالي العربية) حاضرة في ذهنه الى درجة أنه كان يشيراليها في أية مناسبة وكل مناسبة.. وكانت عنصرا ثابتا في محاضراته وأحاديثه. وقد أشار اليها في أول خطبة له ألقاها في بوسطن بالولايات المتحدة في عام ١٨٤٢، ثم في واشنطن وفرجينيا، حيث كان يستخدم في تلك الخطب عبارات مثل: " كما الجني في الحكاية" و "كما الأميرة في الليالي العربية".

ويقر السير ولسون أيضا بان ديكنز تعلم من ألف ليلة أسلوب السرد الروائي المشحون بالترقب، أي مثلما كانت شهرزاد تفعل مع شهريار حين كانت تستحوذ على إهتمامه بتأجيل نهاية القصة في كل ليلة. ويتجلى إستخدام ديكنز لهذا الأسلوب في رواية (ديفيد كوبرفيلد)، فكان بطل الرواية يشعر بالخوف والهلع من فقدان الرعاية التي يقدمها (ستيرفورث). كما يتجلى في رواية (دكان العجائب القديم) التي تشير بعض المصادرالى أن نشرها في حلقات مسلسلة أدى الى تعلق الجمهور الشديد بها وأصبح ديكنز يستلم رسائل كثيرة تطالبه بأنقاذ حياة الشخصية الرئيسية في الرواية وهي الطفلة (نيل). ليس هذا فحسب بل يقول السير ولسون ان ديكنز أستخدم شخصيا اسلوب شهرزاد بنشره الرواية على حلقات متسلسلة لكي يزيد لهفة القراء! ويعقد ولسون مقارنة شيقة بين المصير الذي كان ينتظر شهرزاد وبين التزام ديكنز تجاه الناشر فيقول: "ان وقوف عامل المطبعة عند باب ديكنز لياخذ المادة كل اسبوع هو اشبه بتهديد شهريار لشهرزاد بالموت، فكأنه يقول له: "أعطنا حكاية جديدة، وإلا .."

ولكن برغم أهمية قصص ألف ليلة وليلة في تشكيل تجربة ديكنز الأبداعية فأن جدول المهرجان الحافل بالأحاديث والعروض لم يعكس هذا الركن الجميل من أركان طفولته وأدبه. وردا على سؤال طرحناه على السيدة سيلفيا هوكز، أحدى عضوات لجنة المهرجان، حول هذا الجانب ردت بالقول: "لايوجد في مهرجان السنة الحالية فقرة تتطرق الى علاقة ديكنز بقصص ألف ليلة، ولاأذكر أن المهرجان تطرق الى هذا الموضوع منذ أنضمامي اليه منذ أحد عشر عاما".

مراكب الأحلام

حين نتأمل الأمتداد الريفي الأخضر المحيط بالمدينة، تتسرب الى أذهاننا صورة ديكنز وهو يستغرق في تدوين رسائله الى أصدقائه القاطنين في أرجاء أخرى من أنجلترا. كانت الرسائل تتحدث عن جمال الطبيعة وأعتدال المناخ وأهمية أن يأتي الأصدقاء لزيارة (برودستيرز) والأستجمام فيها. في ذلك الوقت كان السفر بالقطار ظاهرة جديدة ومحدودة الأستعمال وكانت القوارب البخارية هي الوسيلة المعتادة للنقل، والمفضلة لدى ديكنز أيضا. كتب في ٢٩ أيلول من عام ١٨٤٢ الى صديقه ومؤرخ سيرته جون فورستر مبديا تذمره لعدم أمكانية السفر بالقارب:

"... إن البحر هائج، وكان القارب ينتظر في (مارغيت) طوال الليل بكامل ركابه... لذا فسوف نضطر الى أستخدام العربة والعودة برا، طبعا لن يكون بمقدورنا أن نفتح الشبابيك أو نمد أرجلنا...).

وكتب في تموز من عام ١٨٤٣ الى صديقه المستر آلان قائلا: (لاتنسى موعدنا في برودستيرز...بحر رائق، نسمات عليلة، رمال ناعمة، ونزهات جميلة ، بالأضافة الى المنار و قوارب الصيد...أنها واحدة من أنقى الأماكن هواء في العالم...والمكان المناسب لك!).

❖ ❖ ❖

نتأمل في معالم وأركان المدينة التي أحبها ديكنز ونشعر بأنها مازالت تحتفظ بالجمال الطبيعي الذي وصفه برغم مرور حوالي مائة وأربعين عاما على رحيله!

توفي ديكنز في عام ١٨٧٥ إثر مرض مفاجئ، وقيل أن الجهود التي كان يبذلها في التفكير والكتابة ساهمت في رحيله المبكر. ويرجح أنه أصيب بجلطة دماغية أدت به الى الشلل. وقد عم الحزن البلاد لوفاته بعد أن غدا شخصية وطنية تعبرعن مشاكل المجتمع وتساهم في تقويم وأصلاح مؤسساته. الأمر الذي جعله في مصاف العظماء، ودفن في كنيسة (ويستمنستر) مع القادة والشخصيات التاريخية. ورحل ديكنز تاركا حكايات شهرزادية لاتنضب عن مرحلة مهمة من تاريخ أنجلترا والعالم، بما تضمنته من تحولات وأنجازات كبيرة.

ديكنز والخرافة!

كان الناس في العصر الفيكتوري يؤمنون بالكثير من الخرافات، ومنها أن الزواج وغيره من التعاقدات الأجتماعية التي تتم في يوم الجمعة يكون مصيرها الفشل..! إلا ان ديكنز أثبت بطلان هذه الأفكار وصرح بان كل تعاملاته التي تمت في يوم الجمعة كانت ناجحة!!